



خلطت إيران بين عقيدتين تاريخيتين:

الزرادشتية الفارسية والباطنية بالتشيع على الطريقة الشعبية

ارتكزت أنماط التدين الفارسي على الديانة الزرادشتية باعتبارها تعبيرًا دينيًا مهمًا قديمًا، انتشر في بلاد فارس نتيجةً لبعض المبادئ التي تتقاطع مع البنية السلوكية للفارس، هذا بالإضافة إلى تميز الزرادشتية بمعالجة ظاهرة الصراع الأزلي بين الخير والشر والنور والظلام، ودافعت عن وحدانية الله واختيارية البشر وفق مفهومها المشوه المنحرف البعيد عن التشريعات الإلهية السماوية.

استفادت الزرادشتية من عدة عوامل في بقائها واستمرارها؛ ولعل أهمها التماهي العقدي لمؤسس الدولة الفارسية الأولى (كورش) مع مبادئ الزرادشتية. كذلك استمرار تداول وتوارث مبادئ الزرادشتية، من خلال تدوين مبادئها من طرف الدولة الساسانية التي قامت بتجميع وتدوين النسخة الوحيدة من "الأبستاق" (الأفستا)، ومن ثم حافظت على بعض مبادئ الزرادشتية في كتاب اجتمع عليه الفرس.

ولأن الدولة الساسانية اتخذت الزرادشتية دينًا رسميًا لإيران، ولم يكن لها دين رسمي حتى ذلك الوقت، ساهم ذلك في بقائها واستمرارها، بينما كانت الشعوب التابعة لإيران حرة في اعتناق الدين الذي يقبله كل شعب منها، ويبدو أن هذه الحالة كانت وقتية لظروف مرحلة تاريخية في صعوبة فرض الثقافة والدين الفارسي على الشعوب الأخرى، لكن بعد تسلطهم اختلّف الأمر، حتى أصبح لدى الفرس هوس في التغلغل وفرض الثقافة، كما هو في وقتنا المعاصر بما تقوم به إيران حاليًا من فرض ثقافتها وإرادتها على غيرها من الشعوب خدمة لقوميتهم وفارسيتهم.

استمرار السلوك الديني في مجتمع الفرس اضطر إلى إيجاد شوكة قاهرة له؛ لفرض قبول ظاهر من الجميع، وهما الشرطان الضروريان للمراكمة لأي معتقد ديني، فيتحول المؤمنون به إلى أشرس المدافعين عنه، هذا المعطى جعل الزرادشتية تصمد -ولو نسبيًا- أمام رياح التغيير الثقافي والديني قبل أن يأتي الإسلامي ليخرج الفرس من ظلمات المعتقدات إلى نور الإسلام المبين، ولتبقى معه الزرادشتية على هامش المعتقدات الفارسية التي رأى فيها الإيرانيون تعبيرًا عن البنية العرقية التي تحدد تعبيراتهم العنصرية تجاه باقي المكونات العرقية والطائفية في الداخل والخارج.

وبالإضافة إلى التفسيرات المنطقية التي توطر بقاء آثار الثقافة الزرادشتية واستمرارها بين الفرس رغم ضعف بناءاتها ومستنداتها، يمكن رصد أحد الأسباب الإضافية لهذا الصمود، يعود إلى طبيعة الهدف والرسالة التي تدافع عنها الزرادشتية وتبشر بها أتباعها، وهنا نجد أن تعاليم الزرادشتية تبشر وتؤكد على العمل في سبيل النهوض بقومية الفرس من خلال معتقداتهم وتصوراتهم المشوهة، منها أن الخيرين من الفرس سيلحقون بـ (أهورامزدا) في الجنة التي يتصورونها، فأما أهل الشر والسوء فسيسقطون في فجوة عميقة من الظلام، يكون طعامهم فيها السم الزعاف على الدوام.

ساهم المستشرقون لاعتبارات غير بريئة في الترويج للزرادشتية ونشر مبادئها في العديد من أرجاء العالم

من جانب آخر، ساهمت كتابات المستشرقين لاعتبارات غير بريئة، في إشعاع مبادئ الزرادشتية واستمرار تداولها، حيث نشطت كتابات المستشرقين حول هذه الديانة الفارسية خصوصًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يؤكد ذلك أحد الباحثين بقوله: "ومنذ ذلك الحين، تقدمت دراسات وبحوث الأفستا بخصوص اللغة والمضمون سريعًا، وقام العديد من العلماء المختصين الأوروبيين بنشر نصوص وأبحاث مهمة حول زرادشت والزرادشتية، مثل: "هكذا تكلم زرادشت" للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844-1900) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر".

ورغم أن إيران تبنت المذهب الباطني واعتبرته الخط الرسمي للدولة، من خلال تسييس المذهب الشيعي وتوجيهه لخدمة المشروع الصفوي للدولة، إلا أن العقيدة العرقية الفارسية ظلت تتحكم في التعبيرات السياسية والرسم الإيديولوجي للفارس، ولعل التقاطعات العرقية مع الزرادشتية دفعت الساسة الإيرانيين إلى الانتباه إلى ضرورة تميمينها وتشجيعها ورفعها إلى مستوى جزء من المكون الحضاري الإيراني.

لذلك فطن الشاه رضا بهلوي إلى أهمية إدماج الزرادشتية ضمن الهوية الإيرانية ولذلك سعى كثيرًا من أجل تقوية الشعور بالفخر القومي، من خلال الاهتمام الكبير الذي أولاه لعظمة الإمبراطوريات الإيرانية السابقة: الأخمينية، والبرثية، والساسانية؛ وبهذا الشكل تطابقت أهداف الشاه مع الأهداف الزرادشتية.

في المحصلة سنجد أن لإيران الفارسية عقيدتين، الأولى والأكثر تأثيرًا هي العقيدة العرقية القومية التي تدعم المبادئ الزرادشتية باعتبارها مكونًا فارسيًا، والثانية التشيع باعتباره خيارًا استراتيجيًا لفرض الثقافة الفارسية وتحقيق تطلعاتها في مد هيمنتها وفرض ثقافتها على الشعوب الأخرى. لذلك نجد أن كثيرًا من التداخل حدث بين العقيدتين الفارسية الزرادشتية والتشيع الفارسي الباطني.

(1) جاد محيدلي، تعرفوا إلى الزرادشتية...الديانة الإيرانية الغامضة، صحيفة النهار اللبنانية، (2019).

(2) حسن بيرنيا، تاريخ إيران القديم...من البداية حتى نهاية العصر الساساني، ترجمة: نورالدين عبدالمنعم والسيباعي محمد (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013).

(3) عبدالله العباداني، تاريخ الديانة الزرادشتية، ترجمة: عبد الستار كلهور (دهوك: مؤسسة موكرياني، 2011).

(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1947).

